على هامش السيرة

من معجزات الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

قال :

— هل لك يا سُراقةُ فى مائة من الابل ؟

— قال سُراقةُ : ما أحوجنى إلى عشرين ! فكيف السبيل إلى مائة ؟

— قال : تردّ على قريش صاحبها ، فقد خرج من مكة حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله ، يهاجراً إلى المدينة ، فبثّت قريش عيونها فى سُبل مكة وشعابها ، وبعثت رسلها فنفضوا الصحراء نفضاً فما وقعوا له على أثر ، فعادوا إلى قريش بالإياس منه ، فأذنت قريش فى العرب ، أن من ردّ علينا محمداً فله مائة من الابل ، وقد رأوت ركبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفاً ، وإنى لأراهم طلبة قريش . . . فهل لك أن نلحق بهم فنردّهم إلى مكة ونأخذ مائة الناقة فنقتسمها بيننا ؟

فرقص قلب سراقة فرحاً ، ولعب به الطمع : وكان سراقة ابن مالك الجعشمى رجلاً متعفرتاً متشيطناً ، فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له ، فقال لصاحبه :

— ما هؤلاء من تريد ، هؤلاء بنو فلان ينشدون ضالّة لهم

فصدّق الرجل وانصرف ، وذهب سراقة فجلس فى نَدِىّ قومه كما كان يجلس كل عشيّة فما اطمأن به مجلس ، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً ، وإنما كان يخيَّلُ إليه أنه يرى قِطاراً طويلاً من الايل يمرّ أمامه ، ويدور من حوله ، فيخفق لمرآه قلبه ، وتتحلّب أشداقه . . . ثم طمى به الطمع ، فبرح النادى إلى بيته ، يلوص بعينه آفاق المستقبل ، ويقلّب أوجه الممكن ويفكر فى مائة الناقة أيعلكها حتى تكون طوع أمره يصرّفها كما يشاء فتلد ، وتتكاثر فينحر منها ، ويطعم الجائع ، ويقرى الضيف ، ويرفد الوافد فيسير ذكره فى العرب ، وتنتجعه الشعراء ، وتمشى بعدائحه الركبان ؟ أم هو لا ينالها ، ولا يفيد من سفره إلا لذعَ الشمس ، وبَرْح العطش ، وطول التعب ؟ . . .

وامتد به التفكير حتى ما يكاد يخرج منه ، ولا يكاد يستقر على الرأى لحظة حتى ينتقل إلى غيره : لم لا أذهب ؟ إنى سأجدهم فأردّهم على قريش . . ولكن ألم تعجز رسل قريش عن أن تهتدى اليهم ؟ فكيف أجدهم أنا ؟ . . . بل سأجدهم ، إنى سالك كل طريق تؤدى إلى المدينة . . . ولكن يالله السخف ! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها ؟ . . .

ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتى الحظ ، ويهتدى بالمصادفة — فأخرج أزلامه فاستقسم بها ، وحاول أن يشتفّ الغيب من خلالها : إن خرج الزلم الذى أكره « لا يضره » لم تكن النياق لى . وإن خرج الذى أحب « يضرّه » كانت لى ، إن الحكم للأزلام . . .

وضرب بيده فخرج الزلم الذى يكره ، فتألم واشتد ذلك عليه ، لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمد منها العزم على الذهاب لا الرغبة فى القعود ، ثم قال :

إنها أول مرّة ، وهى للشيطان ! وإنى ضارب الثانية ، إن الثانية لآلهتنا ، وضرب الثانية فخرج الزلم الذى يكره . فقال لنفسه : مالى ؟ وهل يقنع امرؤ بمرتين ؟ إن المعوّل على الثالثة . وضرب الثالثة فخرج الزلم الذى يكره . . . فتصبب على جبينه العرق البارد ، فألقى الأزلام حنقاً ، وأمر غلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادى ! .

الدهر عمر ، وخلده حين حمله القمر ، فجعله فى التاريخ تقديراً ؛ وإنما بعثه لرسالة الاسلام تفسيراً ، يدور مع الأيام ، ويتجدد لكل عام . . . . أفيتساءل المسلمون بعد أين الطريق وكيف النجاة ؟ وتلك آية الهجرة أول الحياة فى تاريخهم وأول تاريخهم فى الحياة !

يا شرق . . . إن لك عند القمر معنى تاريخياً ، وإن لك فيه لرمزاً حيوياً ؛ فان يبد فى الغرب ناحلاً نضو أسفار ، فهو الطلعة يرتاد لك طريق الفخار ؛ وإن يتألق فى الشرق بدراً كاملاً ، فهو تاج مجدك ، ومثال جدك

الآن يزيح القمر سجف الغيب عن عالم جديد ، فيطالع فى الشرق وجوهاً ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، تحييها منه إشراقة باهرة ، وطلعة نيّرة ، تجل فيهم ما فهموا من معانى المجد والنبل فى آية الهجرة ، ووجوه . . . لاجرى القلم بوصفها ، قد غلبت على أمرها . . . لكنها لم تفقد رجاءها ، ولم تضعف أملها ، فلن تعى ما استمسكت بعروة الايمان « إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » . . . . أولئك لهم من القمر فى إشفاقه الوديع نظرة راجية ، ولفتة حانية ، وإيماءة نافذة ، تثير ذكريات حافزة ، تلهمهم معانى المجد والنبل من آية الهجرة ؟

أمين الخولى

وتريث سراقة حتى إذا تصرّم الليل ، أسحر سالكاً طريق المدينة فسار فيه إلى الصباح فلم يقع من القوم على أثر . فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يلقى فيه أحداً ، حتى زالت الشمس ؛ وحميت الظهيرة ، وتسعرت الأرض ، وأحرق جوفه العطش ، وكان ينهزُه الطمع فيعدو فرسه عدواً شديداً ، حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله ، يأخذ بعضها بسفوح بعض ... ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً ... حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر فاذا عند الغار من جبل ثور محمد وصاحبه ... فصبّت القوّة في عضلاته ، وعادت اليه الحمية والنشاط ، فصاح في الفرس ، فانطلق نحو الغار كالسهم المرسل ؟

* * *

قال أبو بكر رضي الله عنه :

... فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله وبكيت

فقال : ما يبكيك ؟

قلت : ما والله على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليك

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها ...

فلما رأى سراقة مارأى ، وثب عن الفرس ، وقد طار الخوف بلبه ، وأبرأه الفزع من داء الطمع ، وصاح :

— يامحمد ! قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنقذه الله ... وكلمه فكان من قوله له :

— كيف بك يا سراقة إذا لبست سوارى كسرى ؟

* * *

ورجع سراقة ، وقد اجتمعت عليه منذ اليوم المتناقضات من الأفكار والعواطف ، وهاج نفسه الطمع والخوف ، والأمل واليأس ، فجعل يقهقه في هذه البادية ، ويصرخ كمن به جنة ، ولم لا يجنّ ؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل ، وقد فتحت فاها لتبلعه الأرض فنجا ، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد ، وخرق النار ، وخوض البحار ...

— ماذا ؟ أيعدني محمد سوارى كسرى ، كسرى شاهنشاه ملك الملوك ... وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه ، مختفياً في غار — ليس معه إلا رجل واحد — أيبتلع هذا الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله ؟ أتنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجنانه وأنهاره ؟ أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده ؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها ، ورمت عن قوس واحدة ، ما نالت من كسرى منالاً ، على أنها لن تجتمع العرب قط ، ومن ذا الذي يجمع مضر بن نزار وقحطان ... وبكراً وتغلب ... وعبساً وذبيان ... وأين يذهب ما بينها من دماء ؟ ...

أما إن قريشاً كانت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت فما أراه يعجبه أن ينجو من قريش ، ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى .... إنه والله ما يريد إلا أن يتركنا « نحن أيضاً » مجانين !

وانطلق يقهقه ويصرخ :

ويحٌ لك ياسراقة ! ستلبس سوارى كسرى ... كسرى شاهنشاه ملك الملوك

والفرس ينفر من صراخه ، فيطير على وجهه حتى اختفى وراء الآكام ...

* * *

ومرّت السنون

وكان يوم صائف متوقد ، ففرّ سراقة من حرّه إلى حائط له ، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي :

ـ ياسراقة بن مالك الجُعْشُمي .... ياسراقة ....

فصاح : أن لبيك ، وانطلق يؤم الصوت ، فاذا رسول عمر يدعوه أن أجب أمير المؤمنين

وإذا الشمس بين يدى عمر تأخذ الأبصار ببريقها ولمعانها ، وإذا بين يديه تاج كسرى ومِنْطَقَته ...

قال عمر :

هلم ياسراقة ، أتذكر خبر الغار ، وسوارى كسرى شاهنشاه ملك الملوك ؟ ...

ـ قال : نعم

ـ قال . قد أذهب الله بالاسلام ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم ... هات يديك

فألبسه السوارين ، وقال ارفعهما فقل :

ـ الله أكبر ! الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك ، أعرابياً من بني مدلج[1]

* * *

(١) انظر النص التاريخي لحديث سراقة في كتابي : (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) صفحة ٨٣